دمشق: من المستوطنة إلى المملكة

الأستاذ الدكتور سلطان محيسن

قسـم الآثـار

كلية الآداب

جامعة دمشق

ملخص

أثبتت الدراسات الجيولوجية والأثرية أن حوضة دمشق كانت منذ بداية الـزمن الرابع بحيرة كبيرة، أقام على شواطئها الإنسان الأول منذ حوالي مليون سنة خلـت. وقد ازداد هذا الاستيطان كثافة وانتشاراً مع تقدم الزمن. ونظراً لاستحالة التنقيب فـي مدينة دمشق نفسها فإننا نعتمد على المعطيات التي أتت من محيط المدينة وحوضـتها، فقد أظهرت التنقيبات التي بدأت منذ الستينيات من القرن الماضي في مواقع مثل تـل أسود وتل الرماد وتل الغريفة وجود مستوطنات، قرى، مستقرة عرفت البناء ومارست الزراعة وتدجين الحيوانات، وصنعت الأدوات والأواني الفخارية منذ الألـف الثـامن ق.م. كما عرف سكان تلك القرى الفنون، ومارسوا المعتقدات الدينية، وعلى رأسـها عبادة الثور والآلهة الأم وتقديس الأجداد، على امتداد الألفين السابع والسادس ق.م.

استمر الاستيطان البشري بالتطور في العصور اللاحقة، وظهرت مسـتوطنات جديدة في الألفين الخامس والرابع ق.م. مثل تل الخزامـي وتـل البحاريـة، وتلتهـا

مستوطنات مهمة أخرى عاشت في الألفين الثالث والثاني ق.م، في تل الصالحية ودير خبية وغيرها..

بدأ اسم دمشق بالظهور منذ زهاء منتصف الألف الثاني ق.م، وما أن حلّ الألف الأول ق.م، حتى غدت دمشق مملكة آرامية أدت دوراً رئيسياً في تاريخ المنطقة وحضارتها قبل أن يقضي عليها الآشوريون في القرن الثامن ق.م، ليبدأ فصل جديد في تاريخ الشرق القديم.

مقدمة:

قليلة هي المدن التي أبت أن تبوح بكامل أسرارها كما دمشق، تلك المدينة العجيبة التي ما زالت تأتي كل يوم بجديد، ونحن إذا كنا نعلم الكثير عن دمشق ومملكتها إلا أننا ما زلنا نجهل عن ما قبل دمشق، عن دمشق المستوطنة، التي ظهرت وتطورت هنا، ومنذ عشرات الألوف من السنين. إنها مرحلة "ما قبل دمشق" وهي المرحلة التي يطلق عليها الباحثون تسمية "العصور الحجرية" أي العصور التي سبقت الكتابة والتدوين والتي سنحاول التعرف عليها من خلال البقايا المادية الأثرية المتنوعة. سوف نستعرض بصفحات قليلة مرحلة طويلة جداً بدأت مع ظهور الإنسان الأول في منطقة دمشق، منذ زهاء مليون سنة خلت، واستمرت حتى غدت دمشق مملكة ذات حضارة ونفوذ كبيرين.

الإطار الجيولوجي لحوضة دمشق:

إن التشكل الجيولوجي الأول لمنطقة دمشق يعود إلى أكثر من مئة مليون سنة خلت، وهي المرحلة الجيولوجية المسماة بالعصر الكريتاسي Cretace الذي تلته أحداث جيولوجية مثيرة يعنينا منها تلك التي حصلت في الزمن الجيولوجي الرابع المسمى بالرباعي Quaternary الذي بدأ منذ زهاء مليوني سنة خلت وما زال مستمراً حتى الآن (1). في هذا الزمن الرابع أخذت منطقة دمشق شكلها الجيولوجي والجغرافي الراهن، واستقرت فيها أشكال التضاريس من سهول وجبال ووديان وأنهار وبحيرات، وهذا ما وفر البيئة المناسبة، من مياه ونبات وحيوان وخامات جذبت البشر إلى هذه المنطقة منذ ذلك الزمن السحيق (2).

الحق يقال: إن معلوماتنا عن تلك المرحلة ما زالت نادرة لكنها كافية لإعطاء صورة عامة، غامضة في البداية لكنها تزداد وضوحاً كلما اقترب بنا الزمن. وهكذا أصبحنا نعلم أن حوضة دمشق الحالية كانت في الزمن الرابع بحيرة كبيرة امتدت من

تخوم البادية في منطقة الضمير وجيرود شرقاً حتى الكسوة غرباً، ومن سفوح قاسيون وسلسلة جبال القلمون الأولى شمالاً وحتى سلسلة الجبال البركانيـة الجنوبيـة التـي تفصلها عن سهول حوران جنوباً. وما بحيرتا العتيبة والهيجانة إلا البقايا الأخيرة لهذه البحيرة الأولى والكبرى والتي ارتفعت شواطئ القديمة بين 100-125م عن الشواطئ الأخيرة لهاتين البحيرتين اللتين لم يعد لهما وجود بعد أن جفتا منذ سـتينيات القـرن الماضي. تغذت هذه البحيرة الأولى، ومنذ نشوئها بمياه نهري بردى والأعوج، فضلاً عن الأمطار والثلوج التي تدل على مناخ بارد ورطب ساعد على انتشار غابات كثيفة في الجزء الأكبر من الحوضة.

في مرحلة البليستوسين الأوسط Middle Pleistocene، منذ زهـاء 600،000 سنة، حصل تبدل مناخي ومال الطقس نحو الجفاف، وتراجعت كمية هطول الأمطـار والثلوج، فتقلصت مساحة البحيرة الأولى وهبطت شواطئها إلى ارتفاع 20-15م فوق مستوى الشواطئ الأخيرة لبحيرتي العتيبة والهيجانة. وفي مرحلة البليستوسين الأعلى Upper Pleistocene، منذ زهاء 100،000 سنة، اشتد ميلان الطقس نحو الجفـاف، وتراجعت حدود البحيرة إلى زهاء 20كم شرق-غرب و10كم شمال-جنوب، مع بقاء العتيبة والهيجانة مركز هذه البحيرة. وإلى هذا العصر يعيد الجيولوجيون تشكل التربة السوداء الخصبة "لغوطة دمشق". استمر تقلب المناخ بين ماطر وجاف، وتبدلت معـه حدود البحيرة مداً أو جزراً، وذلك حتى زهاء 15000 سنة خلت، أي حتى بداية عصر الهولوسين عندما أخذت هذه البحيرة شكلها القريب إلى ما كان عليه حتى السـتينيات من القرن الماضي، قبل أن تختفي هاتان البحيرتان كلياً (3).

الإنسان الأول في حوضة دمشق:

وصل إنسان العصر الحجري القديم إلى حوضة دمشـق منـذ بدايـة العصـر الحجري القديم Palaeolithic، دلت عليه الأدوات الحجرية، ولاسيما الفؤوس اليدوية، التي عثر عليها في مناطق متفرقة من هذه الحوضة. فقد كان هذا الإنسان من النـوع

المسمى الهومو اركتوس Homo-Erectus الذي ظهر في أفريقية ثم انتقل لاحقاً إلى بقية أرجاء المعمورة، وهو إنسان متوسط القامة، طوله زهاء 160سم، غليظ البنية، وله حجم دماغ زهاء 1200سم3، أي أقل من متوسط حجم دماغ الإنسان الحالي. عاش هذا الإنسان متنقلاً خلف مصادر الغذاء من صيد للحيوانات والتقاط للثمار والنباتات البرية. تنقل هذا الإنسان في وديان نهري بردى والأعوج وعلى شواطئ البحيرة القديمة فضلاً عن المرتفعات والهضاب المحيطة بالحوضة والتي وفرت له مقومات العيش المطلوبة.

منذ الثلاثينيات من القرن الماضي عثر على الأدوات الحجرية العائدة إلى ما يسمى بالثقافة الآشولية Acheulean التي صنعها واستخدمها ذلك الإنسان، في مواقع مختلفة في حوضة دمشق، ولاسيما، وادي شركس، الأشرفية، حوض بردى (4). هذه الأدوات هي فؤوس يدوية صنعت من الحجر الصواني الصلب، واستخدمت في القطع والقلع والكشط، وغير ذلك من الأنشطة التي مارسها ذلك الإنسان الذي عاش في العصر الحجري القديم الأدنى، أي منذ زهاء 1000.000 سنة خلت. في الستينيات من القرن الماضي وصلتنا معلومات أكثر عن هذا العصر، وذلك على يد الباحث الهولندي ڤان ليره Van Liere الذي عثر على الأدوات الحجرية للإنسان المشار إليه في مدينة دمشق نفسها، منطقة المزة، وفي منطقة الحمة بجوار دمشق (5).

فقد أصبح الوجود البشري أكثر كثافة في حوضة دمشق في المرحلة اللاحقة، مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط، الباليوليت الأوسط، التي ابتدأت منذ زهاء 200.000 سنة خلت. ظهر في هذا العصر نوع جديد من البشر هو إنسان النياندرتال Neanderthal الذي كان أكثر تطوراً من سلفه الهومو اركتوس،على الصعيدين الڤيزيولوجي والحضاري، فقد كانت قامته أطول زهاء 165سم، وحجم دماغه أكبر، قرابة 1400سم3، كما أنه صنع أدوات حجرية أكثر تنوعاً من سلفه، وكانت له حياة اجتماعية أكثر تطوراً، كما أنه مارس معتقدات وشعائر لم تكن معروفة من قبل

مثل دفن الموتى وتقديس بعض الحيوانات كالادب والغزال. وجدت الأدوات الحجرية التي صنعها إنسان النياندرتال في مناطق عديدة من حوضة دمشق وجوارها، وكانت عبارة عن سكاكين ومقاحف ومكاشط وأزاميل؛ وهي من النوع الذي ينسب إلى ما يعرف بالثقافة اللفلوازية-الموستيرية Levalloiso-Mousterian التي انتشرت في مناطق واسعة من الشرق القديم والعالم (6).

تعد المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم وهي مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى التي ابتدأت منذ زهاء 40000سنة، هي الأكثر غموضاً في تاريخ استيطان حوضة دمشق، والمنطقة بشكل عام. فقد حصل في هذا العصر تراجع واضح في كثافة الاستيطان فأصبحت المواقع أندر والمكتشفات أقل، ولا يزال الباحثون يدرسون الأسباب الكامنة خلف هذه الحالة سواء كانت مناخية أم اجتماعية، أم أنها حالة راهنة قد يبدلها تطور البحوث المستقبلية.

ومع ذلك فإن الإنسان لم يختفِ تماماً من حوضة دمشق وإنما وجدت بعض دلائله، أدواته الحجرية، مبعثرة في مختلف أرجاء الحوض، ولاسيما ضمن ترسبات نهر بردى، فضلاً عن مناطق مجاورة للحوضة مثل معلولا وصيدنايا ومنين (7).

المستوطنات الزراعية الأولى في حوضة دمشق:

مع انتهاء العصر الحجري القديم، أي منذ زهاء 15000 سنة، وهي المرحلة المسماة بالعصر الحجري الوسيط، الميزوليت Mesolithic، بدأت الأوضاع بالتبدل إثر تحسن مناخي ملحوظ، ساعد على قيام بيئة مواتية وغنية. وهكذا عاد الاستيطان أكثر كثافة ووضوحاً كما دلت على ذلك المناطق التي نُقبت في محيط حوضة دمشق، ولاسيما في سهل الصحراء شمال غرب دمشق (8) وفي منطقة جيرود (9) وصيدنايا شمال دمشق (10) وجبعدين شمال شرق دمشق حيث كُشف عن آثار استيطان، أدوات

حجرية صغيرة وكبيرة، أفران ومواقد وأدوات عظمية، وأدوات زينة، تؤشـر كلهـا بداية تبلور مستوطنات في طريق النهوض على أكثر من صعيد (11).

وما إن حل العصر الحجري الحديث النيوليتي Neolithic مـع مطلـع الألـف التاسع ق.م، حتى أصبحنا أمام صورة جديدة للاستيطان الإنساني في حوضة دمشـق، فقد شهد هذا العصر تحولات كبرى، اقتصادية واجتماعية، في حياة مجتمعات عصور ما قبل التاريخ: هذه المجتمعات التي انتقلت من مرحلة التنقـل والصـيد والالتقـاط للخيرات البرية إلى مرحلة الاستقرار، وممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات. وهكـذا بعد الاعتماد على الاقتصاد الاستهلاكي للثروات الطبيعية بدأت هذه المجتمعات بإنتاج غذائها بنفسها فتحررت - إلى حد كبير- من تقلبات الطبيعة وعواقبها. فقد كان هـذا التبدل من العمق و الأهمية بمكان حتى أُطلق عليـه "الثـورة النيوليتيـة Neolithic Revolution". وقد تبين أن منطقة المشرق العربي القديم، وبلاد الشام تحديداً، كانـت المهد الأول والأبكر الذي انطلقت منه هذه الثورة. ولم تكن حوضة دمشق بعيدة عـن تلك الأحداث، إن لم نقل: إنّها كانت في قلبها على أكثر من صعيد (12).

إن التلال الأثرية المنتشرة في غوطة دمشق ما هي إلا بقايا هـذه المسـتوطنات الزراعية التي نشأت وتطورت في هذه الحوضة، فقد بدأت في الستينيات من القـرن الماضي أعمال مسح وتنقيب قادها بخاصة الباحث الفرنسي هنري دي كونتنسـون H. de Contenson الذي اكتشف ونقب بعضاً من هذه التلال التي أعطت معلومات وفيرة عن واقع حياة تلك المستوطنات على امتداد زهاء أربعة آلاف سنة متتالية. يعـد تـل أسود الواقع بين بحيرتي العتيبة والهيجانة إلى الشرق من مدينة دمشـق المسـتوطنة الأقدم والأهم، فقد أسفرت الأسبار المحدودة التي أجريت في الموقع في الستينيات من القرن الماضي، والتنقيبات الواسعة التي بدأت مع مطلع القرن الحالي، أسـفرت عـن الكشف عن قرية تعود إلى الألف الثامن ق.م. أقام سكانها في بيوت صغيرة، وكبيرة، بنيت من اللبن والطين والقصب، الذي توفر بكثرة في محيط الموقع. فقد وجدت بـين

أنقاض هذا الموقع مكتشفات غزيرة ومتنوعة دلتنا على طبيعة النشاط الاقتصادي والاجتماعي الذي مارسه السكان الذين تبين أنهم زرعوا القمح والشعير والحمص والعدس، ودجنوا الماعز والغنم إلى جانب ممارستهم لالتقاط الحبوب والثمار البرية واصطياد الأسماك والحيوانات البرية. كما كشف عن أدواتهم وأسلحتهم الحجرية، ولاسيما المناجل التي استخدمت في قطع النباتات والحصاد ورؤوس السهام التي استخدمت في الصيد، وهناك السكاكين والمقاحف والمكاشط وأدوات الجرش والطحن الثقيلة التي استوردوا خاماتها من مناطق بعيدة، إذ حصلوا على الصوان من سفوح جبال لبنان الشرقية، وعلى حجر الأوبسيديان (السبج) من مناطق الأناضول، كما استوردوا أنواعاً مختلفة من الأحجار النادرة التي صنعوا منها الحلي وأدوات الزينة إلى جانب الأدوات العظمية المتنوعة. كما وجدت في المستوطنة الدمى الإنسانية والحيوانية والجماجم الإنسانية المحنطة التي تدل على شعائرهم ومعتقداتهم، كما سنرى لاحقاً (13).

في الألف السابع ق.م. شهدت حوضة دمشق ازدياداً ملحوظاً في الاستيطان، وظهر المزيد من القرى الزراعية، عرفنا منها مستوطنة تل الغريفة الواقعة إلى الشمال قليلاً من تل أسود، والتي أقام سكانها في بيوت مشابهة لبيوت سكان تل أسود، وصنعوا أدوات حجرية أكثر تطوراً ولاسيما المناجل ذات الأسنان الكبيرة ورؤوس النبال ذات الساق "نبال جبيل"، كما اتسع استخدام الأدوات الثقيلة كالرحى والأجران والبلاطات، وتطور استخدام الطين في صنع اللبن والتماثيل (14).

شهد النصف الثاني في الألف السابع ق.م. اتساعاً مهماً للاستيطان في حوضة دمشق فنشأت مستوطنات جديدة، وفي وسط جغرافي جديد ومختلف عن واقع البحيرة التي قامت بجوارها المستوطنات التي تحدثنا عنها سابقاً. فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت خلال السنوات عديدة في تل الرماد الواقع في السفوح الجبلية قرب قطنا، جنوب غرب دمشق، عن مستوطنة، قرية زراعية، تطورت بين منتصف الألف السابع

ق.م. ومنتصف الألف السادس ق.م. أقام السكان في البداية في بيوت صغيرة، أكواخ، بيضوية أو دائرية، مبنية من الطين الدك والحجر، أرضياتها مرصوفة بالحصى أو مطلية بالملاط الأبيض أو الطين، فصلت بينها مساحات أقيمت فيها المخازن والمواقد والتنانير. ثم أصبحت هذه البيوت أكبر ، أشكالها مستطيلة أو مربعة، ذات جدران سميكة، بنيت من اللبن المقولب، أساساتها من الحجر، ولابد أن هذه البيوت، كانت تتسع لأسر كبيرة تربطها علاقات عائلية متينة، بعد أن اتسع وتعقد النسيج الاجتماعي للقرية. فقد انتشرت هذه البيوت، الكبيرة والصغيرة، حول شوارع وساحات أقيمت فيها منشآت خدمية متنوعة. في المرحلة الأخيرة من حياة مستوطنة تل الرماد، لوحظ تبدل اقتصادي واجتماعي مهم في حياة السكان الذين تحولوا من مجتمع مستقر، شكلت الزراعة مصدر رزقه الأهم في مراحلهم السابقة إلى مجتمع رعوي متنقل اعتمد على تربية الحيوانات بعد أن تراجعت الزراعة، كما دلت على ذلك بيوتهم البسيطة والموسمية، فضلاً عن البقايا الكثيرة لعظام الحيوانات التي دجنوها كالغنم والماعز والبقر والخنزير. وهكذا أصبح بإمكاننا ملاحظة، ومنذ ذاك العصر، بداية تبلور مجتمعين مختلفين، الأول زراعي حضري مستقر، والآخر رعوي بدوي متنقل، وهما مجتمعان تعايشا وتكاملا جنباً إلى جنب. إن هذا الواقع ما زال سائداً حتى يومنا هذا الذي يتعايش فيه المزارعون، الحضر، في قراهم المستقرة إلى جانب البدو المتنقلين خلف ماشيتهم ومخيماتهم الموسمية.

فقد وجدت في تل الرماد كميات ضخمة من الآثار المنقولة المتنوعة بينها الأدوات الحجرية الصوانية والبازلتية الكلسية والأواني الحجرية، ولاسيما الأواني الفخارية التي ظهرت في حوضة دمشق أول مرة زهاء نهاية الألف السابع ق.م، وهي من نوع الفخار القاتم المصقول المسمى "فخار العمق"، ويعتقد أنه من مستوطنة تل الرماد انتقلت الأواني الفخارية جنوباً إلى لبنان وفلسطين. كما وجدت في تل الرماد

مكتشفات نادرة كالإبر والمكاشط والملاعق العظمية، وغير ذلك من اللقى التي تـدل على مجتمع قادر على إنتاج كل ما يحتاج إليه وتصنيعه (15).

بقيت الحياة مستمرة في حوضة دمشق على امتداد الألفين الخامس والرابع ق.م، كما دلت التنقيبات التي أجريت في موقع تل الخزامي إلى الشمال من تل أسود المشار إليه، أو في موقع تل البحارية، ففي تل الخزامي، الذي اختفى الآن بفعل إنشاء مطـار دمشق الدولي، كُشف عن بيوت صغيرة من اللبن، وعن كميات كبيرة مـن الأوانـي الفخارية المطلية باللون الأحمر والمزخرفة بالحز والتي انتشرت في القسم الجنـوبي من بلاد الشام. وهناك الأدوات الحجرية والدمى البشرية والحيوانية وغير ذلك (16).

ولعل من المكتشفات المتميزة في تل البحارية فضلاً عن البقايا العمرانيـة هـي الدمى الإنسانية والحيوانية ولاسيما تلك التي تمثل رؤوس الطيور علاوةً على الكرات والحصى الطينية التي يعتقد أنها استخدمت في عمليات الحسـاب والتـي تعـد مـن الابتكارات الحضارية التي مهدت لظهور الكتابة ووضعت نهاية لعصـور مـا قبـل التاريخ لتبدأ العصور التاريخية القديمة (17).

فنون المستوطنات الزراعية ومعتقداتها في حوضة دمشق:

رافق التحول الاقتصادي الكبير الذي حصل في العصر الحجري الحديث، تحول اجتماعي مهم أيضاً يدل على تطور التنظيم الاجتماعي والسوية الفكرية والحضـارية للناس الذين لم يهتموا فقط بحاجاتهم المادية ومتطلبات معيشتهم المباشرة وإنما طوروا حياتهم الفكرية والروحية التي نجد أفضل تعبير عنها في فنونهم التي عكست معتقداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية أيضاً والتي دلت عليها المكتشفات الأثرية التي وجـدت في مستوطناتهم الزراعية من تل أسود إلى تل الغريفة وتل الرماد وتل الخزامي وتـل البحارية، وأهمها الدمى والتماثيل الإنسانية والحيوانية، والجماجم الإنسانية المحنطـة، وأدوات الزينة والحلي المختلفة، وهي تدل في مجملها على إيمان تلـك المجتمعـات

بمعتقدات معينة على رأسها "عبادة الثور" و"الآلهة الأم" و"تقديس الأجداد" (18). فقـد جسدوا الحيوانات التي دجنوها أو اصطادوها كالغنم والماعز والبقر، وقد حظي الثور باهتمام خاص، فصنعت له التماثيل "الدمى" من الطين المشوي عمومـاً أو المجفـف بالشمس والهواء، وهي تركز على مناطق الفحولة والقرون رمز للخصوبة والقوة التي وجدت أفضل تعبير عنها من خلال "تقديس الثور"، ذلك الحيـوان الجميـل والمفيـد وصاحب الحضور والتأثير المعبرين. إلى جانب الثور (رمز الذكورة) حظيت المـرأة باهتمام واضح أيضاً، وتعد التماثيل الإنسانية التي وجدت في تل أسود من أروع مـا اكتشف حتى الآن، فقد صنع سكان تلك المستوطنة التماثيل الطينيـة الصـغيرة التـي جسدت المرأة "الآلهة الأم" بعضها واقعي ومعبر، وقد ظهرت هـذه المـرأة عاريـة، واقفة أو جالسة، وركها عريض وصدرها بارز، ترفعه بكلتا يديها، وهي غالبـاً بـلا رأس، وبلا نهايات للأطراف لأن الاهتمام انصب على مراكز الخصب والأمومة فيها. إن هذه التماثيل التي تعود إلى الألف الثامن ق.م، تجسد "الآلهة السورية الأولى" التـي استمرت تؤدي الدور الأهم في معتقدات شعوب الشرق القديم لآلاف السنين اللاحقـة، فهذه الآلهة هي الأصل الذي أتت منه عشتار وأفروديت وفـينوس فيما بعد (19).

العقيدة الثالثة التي كشفت دلائلها في المستوطنات الزراعية في حوضة دمشـق هي عقيدة "عبادة الأجداد" أو "عبادة الأسلاف". فقد جسدت هذه العقيـدة مـن خـلال الجماجم البشرية المحنطة التي فصلت عن الأجساد وتمت معالجتها، قولبتها، بـالجص بعد أن كشط اللحم عنها، وبشكل يحافظ على تقاسيمها الأصلية، مـع الإشـارة إلـى العيون والحواجب والشعر بألوان أو أحجار خاصة، ثم احتفظ بهذه الجماجم في مخابئ خاصة، بعضها في بيوت السكن، ويعتقد أنه كان يتم استخراجها أو اسـتخدامها فـي المناسبات والشعائر الدينية التي مارسها السكان. إن الاهتمام الكبير الذي أعطي لهـذه الجماجم، مركز الفكر والعقل والروح، جسدته المكتشفات التي أتت من تل أسود، حيث كشف عن العديد من الجماجم المقولبة التي تمت معاملتها بعناية خاصة وتنظيمها فـي

أماكن محددة هي مراكز شعائرية. إن التباين الواضح فـي أشـكال تلـك الجمـاجم وتقاسيمها يدل على أنها تعود إلى أشخاص معينين ومعروفين من قبل مجتمعهم، وهم على الأرجح يمثلون النخبة، القادة والكهنة، من الرجال أو النساء، اليـافعين، والـذين أراد مجتمعهم الاهتداء بهم عبر الاحتفاظ بذكراهم وتخليدهم واحتـرامهم علـى مـر الزمن. فقد تأكدت هذه العقيدة في موقع آخر في حوضة دمشق هو تل الرماد، حيـث كشف عن العديد من الجماجم البشرية، معظمها لنساء يافعات، فصلت هـذه الجمـاجم عن بقية الجسد، وتم كشط جلدها ولحمها ونزع أسنانها، ثـم أعيـد طليهـا بـالكلس المحضر وبطريقة حافظت على ملامح الوجه كاملة، من خلال إبراز العيون بـاللون الأبيض الغامق أو بأحجار نادرة، ويبدو أن هذه الملامح كانت نفسها للمتوفى الأصلي. كما أبرزت تقاسيم الرقبة، وأشير إلى الشعر باللون الأحمر. وضعت هـذه الجمـاجم على شكل مجموعات، في حفر خاصة في أرضيات بيوت السكن، أو علـى امتـداد الجدران، رافقتها تماثيل من الطين، بلغ طول بعضها زهاء الـ 20 سم، وهي تمثـل أشخاصاً في وضعية الجلوس، وكان لهذه التماثيل رقبة أسطوانية الشكل لهـا نهايـة مسطحة تساعد على حمل الجماجم المحنطة التي يعتقد أنها كانت توضع فـوق هـذه التماثيل في أثناء المراسم والشعائر الدينية. ما زال النقاش قائمـاً حـول الدلالـة أو الوظيفة الحقيقية لمثل هذه الجماجم، وهل كانت "ودائع تأسـيس" تبـارك المنـزل وتحميه، أم أنها تجسيد للأموات في بيوت الأحياء (20). ومهمـا يكـن فـإن هـذه الممارسة قد انتشرت على مساحة واسعة في مختلف أرجاء المشرق العربي القـديم، من وادي الفرات شمالاً حتى حوضة دمشق ووادي الأردن جنوباً، وهي دليل واضـح على الوحدة الحضارية الباكرة لهذا المشرق، وهي الوحدة التي تعتبر المعتقدات الدينية حولها دليلها الأهم من أية معطيات أخرى، لأنه ومهما تشابهت الميزات الحضـارية، من عمارة أو أدوات وأوانٍ، فإنها لا ترقى في تأكيد الانتماء الحضاري الواحد، إلـى المستوى الذي يصله تشابه التقاليد والمعتقدات.

كما وجدت في كل المستوطنات المشار إليها مكتشفات فنية أخرى، مثـل أدوات الزينة والحلي، من أطواق، وخرز، وحلق وأساور وقلادات التي صنعت من أحجـار ثمينة ونادرة مثل أحجار الألباتر والسناتيت والهيمانيت والسربتن والسـبج والصـدف والعاج والعظم التي تم استيرادها من مناطق مجاورة، وهذا دليل قيام علاقات تجارية وتبادلات حضارية بعيدة المدى بين مختلف أرجاء المشرق القديم. كما أنها دليل تبلور واقع اجتماعي واقتصادي جديد وبداية الفرز الطبقي والاجتماعي بين النـاس الـذين تخطوا مرحلة المجتمع المشاعي الأول إلى مجتمع الطبقات ذات الإمكانيـات الماديـة والمكانة الاجتماعية المختلفة والمتفاوتة بين طبقة وأخرى. ونظراً لعدم معرفة الكتابة في ذلك العصر فإننا لا نعلم أسماء تلك الشعوب ولا أسماء حكامها ولا قادتها، فضـلاً عن جهلنا بمعتقداتها وأسماء آلهتها وأهم مناسباتها والأحداث التي عاشتها، وما إلـى ذلك من تفاصيل حياتها بكل أبعادها. لكننا نعتقد أن هذه الشعوب هي التـي أسسـت ومهدت لنشوء الحضارات التاريخية الباكرة التي عرفت الكتابة منذ مطلع الألف الثالث ق.م (21).

دمشق المدينة:

كما أشرنا فإنه مع بداية الألف الثالث ق.م. "عصر البرونـز القـديم" عرفـت الكتابة وبدأت الشعوب بتدوين الوقائع والأحداث والأسماء، وفي الحقيقة ليست لـدينا معلومات كافية عن واقع حوضة دمشق في ذلك العصـر. ولكـن مـن المؤكـد أن الاستيطان البشري قد استمر في هذه الحوضة دون أن يظهر ما يشير إلى نشوء مدن مهمة كتلك التي عرفت من شمال أو جنوب المشرق العربي القديم. وما يزيد الأمـر غموضاً هو غياب أية معطيات من مدينة دمشق نفسها بسبب استحالة التنقيب فيها، إذ إن مثل هذه المعطيات والآثار لابد أنها مطمورة تحت أبنية المدينة الراهنة، وما يدعم هذا الرأي هو وجود تلال أخرى في الحوضة، كبيرة في حجمها، وهي قـد أعطـت دلائل استيطان بشري يعود إلى الألف الثالث ق.م، أي إلى عصـر البرونـز القـديم

المشار إليه، مثل دير خبية جنوب غرب دمشق، وتل الصالحية إلى الشرق من دمشق والتي كانت مستوطنات مهمة ومسورة. ومهما يكن فإنه ومنذ هذا العصر بدأنا نتلمس معالم صورة مدينة دمشق الحالية. هذه المعالم لم تبرزها المكتشفات الأثرية مباشـرة التي، كما ورد، كانت وما زالت متعذرة في المدينة، ولكن من خلال وثائق من مناطق أخرى. ومع أن بعضهم يعتقد أن اسم دمشق ورد في نصوص إبـلا، منـذ منتصـف الألف الثالث ق.م. تقريباً إلا أنه لا وجود لمعطيات قاطعة في هذا الصدد.

في الألف الثاني ق.م. عصر البرونز الوسيط، بدأت الصورة أقل غموضاً، ففي هذا العصر أصبحت الوثائق الكتابية أغزر سواء في مصر أو فـي بـلاد الرافـدين. ويتفق الباحثون في الكتابات القديمة على أن الاسم القديم لمنطقة دمشق، أو ما نسـميه هنا حوضة دمشق، هو آبوم Apum ولكن يعتقد بأن هذا الاسم قد أطلق أيضـاً علـى مدينة أخرى واقعة على ضفاف الخابور، وقد يكون اسم آبوم مع اسـم ملكـين مـن ملوكها الذي ورد في نصوص ماري وكانش في الأناضول يتعلق بهذه المدينة ولـيس بمنطقة دمشق. وهكذا يبقى ورود اسم دمشق أو منطقتها في عصر البرونز الوسـيط بين زهاء 2000-1600 ق.م. أمراً ضعيف الاحتمال (22). ومن الصعب القول: إن دمشق كانت تضاهي ممالك هذا العصر الآمورية، مثل إبلا وماري ويمحاض وقطنـا وقادش التي أدت دوراً مهماً في تاريخ المنطقة في ذلك العصر. لكن الاتفاق قائم على أن اسم آبوم الذي ورد في النصوص المصرية العائدة لعصـر المملكـة الوسـطى، ولاسيما فيما يسمى بنصوص اللعنة التي وجدت في منطقة سقارة، وتعود إلى مطلـع القرن التاسع عشر قبل الميلاد، حيث يرد ما يدل على "ملك آبوم الشمالية" و"ملك آبوم الجنوبية" مما يؤكد وجود هذه الإمارات التي ربطتها علاقات تجارية مهمة مع مصر، فضلاً عن أنه كشف في العديد من المدن السورية، أوغاريت، إبلا، قطنا، عـن آثـار ذات أصل مصري مما يشكل دليلاً آخر على تلك العلاقات الباكرة.

شهد القرن السادس عشر ق.م، صراعاً مريـراً وطـويلاً بـين إمبراطـوريتي الميتانيين في الشمال والمصريين في الجنوب. وكانت منطقة دمشق ومدينة دمشق، في قلب هذا الصراع بين هاتين القوتين. فقد ذكرت منطقة دمشق في النصوص الكتابيـة العائدة لهذه الحقبة تحت اسم أوبي Upi. أما مدينة دمشق نفسها، فإن أول ذكر مؤكـد ومتفق عليه لها قد ورد في النصوص الهيروغليفية المصرية وذلك على جدار معبـد الكرنك في الأقصر بمصر عندما ورد اسم تمسق Ti-ms-qu بين المدن التي احتلهـا الفرعون تحوتمس الثالث، في طريقه إلى الفرات فـي القـرن الخـامس عشـر ق.م (1482 ق.م). وعلى الرغم من أن هذه هي المرة الأولى التي تذكر دمشق كمدينـة، وباسمها الصريح، إلا أننا لا نعلم الحجم الحقيقي ولا القوة السياسية أو العسكرية لهذه المدينة، وليس من المرجح أن تكون دمشق في ذلك الحين ذات سلطة ونفوذ كبيرين.

إن الذكر الثاني والمؤكد في الوثائق المصرية لمدينة دمشق قد أتى مـن عصـر امنحوبت الثالث (1403-1364ق.م) وذلك على قاعدة أحد تماثيل معبد في طيبة التي تذكر اسم البلاد الصديقة لمصر تمشق Ti-ms-q، الذي ورد أيضاً بصيغ أخرى قريبة، مع الإشارة إلى أن دمشق كانت إحدى مدن منطقة يوبي وليست عاصمتها، فالعاصمة كانت كوميدي (كامد اللوز) في البقاع الجنوبي في لبنان التي كانت تحكم مـن قبـل أمراء محليين موالين لمصر، وساعين لإرضائها (23).

بدءاً من القرن الرابع عشر ق.م. حصل تحول كبير فـي ميـزان القـوى فـي المنطقة بعد أن تراجع دور الميتانيين ليحل مكانهم الحثيـون كقـوة كبـرى تنـافس المصريين النفوذ على بلاد الشام. وتخبرنا مراسلات تل العمارنة التي جـرت بـين فراعنة الدولة الحديثة في مصر وأمراء بلاد الشام، وفلسطين، عـن ميـزان القـوى والتحالفات أو الخصومات التي جرت بين هؤلاء الأمراء والدولتين الحثية والمصرية. وتتحدث نصوص العمارنة أن الملك شوبيلوليوما الحثي قد احتل بلاد أوبي، التي كانت خاضعة للنفوذ المصري، وأسر ملكها اريوانا. كما تشير إحدى رسائل العمارنة إلـى

شخص يحمل اسم بيرياوازا الذي ربما كان ضابطاً مصرياً أوكنعانياً، وحاكماً علـى بلاد يوبي، وهو قد قاد المقاومة ضد الحثيين، بعد أن وطد نفوذه في دمشق وضم إليها العديد من المدن، بما فيها مدينة كوميدي، واضعاً نفسه في خدمة الفرعون المصري. كما نعثر في أرشيف العمارنة على رسالة تطلب من حاكم دمشق إرسال قوات لإخماد تمرد حصل في منطقة النوبة ضد الفرعون المصري امنحوبت الثالث (24).

كل هذه الإشارات في مراسلات العمارنة تشير إلى أن مدينة دمشق قـد غـدت عاصمة منطقة يوبي وليست إحدى مدنها كما كانت سابقاً، وأن حكامها قد تحالفوا مع مصر في وجه النفوذ الحثي. أما من الجانب الحثي فإن النصوص تشير إلـى قـوة وأهمية مملكة يوبي واتساع نفوذها. وتذكر الوثائق الحثية أنه إثر معركة قادش، تـل النبي مند،قرب حمص، التي جرت عام 1284 ق.م بين المصـريين والحثيـين قـد انسحب المصريون جنوباً حتى أرض يوبي، والتي لا نعلم هل خضعت للنفوذ الحثـي أم كانت مستقلة ومتحالفة مع مصر (25). كما تذكر الوثائق الحثية العائدة إلى زهـاء منتصف القرن الثالث عشر ق.م. خط سير ابنة الملك الحثي حاتوسيلي الثالث، التـي زوجت للفرعون المصري رمسيس الثاني، وهو خط يبدأ بحماية حثية مـن حاتوشـا عاصمة الحثيين، ثم بوصوله إلى منطقة يوبي تسلم حماية هذا الموكب إلـى جيشـها الذي يرافقه حتى مصر (26). كل ذلك يشير إلى أن يوبي وعاصمتها دمشق كانـت، ومنذ القرن الخامس عشر ق.م، ولاسيما في القرنين الرابع عشر والثالث عشـر ق.م، إحدى الممالك المعروفة في جنوب بلاد الشام، وأن نفوذ هذه المملكة قـد امتـد مـن جنوب حمص شمالاً إلى تخوم حوران في الجنوب، ومن منطقة البقاع في الغرب إلى تخوم البادية في الشرق. وواضح أن دمشق قد كانت عاصمة هذه المملكة التي عانـت من الصراع المصري-الحثي، لكنها أخذت جانب مصر دون أن تكـون قـوة كبيـرة ومستقلة بما فيه الكفاية كما سيكون عليه الحال في العصور اللاحقة (27). وقبـل أن ننهي هذه الفقرة نشير إلى أن أصل اسم دمشق معناه ما زال موضع نقـاش وبحـث،

وهناك من يعتقد أن هذا الاسم ليس سامياً، مما يخلق صعوبة في فهمه وتفسيره... أما إذا اعتبرناه من أصل سامي فقد يكون يعني "الأرض المروية" أو "الأرض الخصبة" أو "المجاورة للجبل"، وكلها تفسيرات تتماشى مع المواقع الجغرافية لهذه المدينـة، مـع الإشارة إلى أن الموضوع ما زال مفتوحاً للبحث (28).

آرام دمشــق - المملكة:

شهدت نهاية الألف الثاني أحداثاً كبيرة تميزت بانهيار المملكة الحثية وغـزوات شعوب البحر وبداية بروز الآراميين الذين أصبحوا إحدى أهم القـوى الفاعلـة فـي المنطقة. فقد تحدثت الوثائق الكتابية بوضوح عن دور للآراميين منذ القـرن الثـاني عشر ق.م. وهذا لا يعني أن وجودهم ليس سابقاً لهذا التاريخ. أقام الآراميون مجموعة من الممالك التي امتدت في مختلف مناطق بلاد الرافدين وبلاد الشام (29). وقبـل أن ندخل في التفاصيل نشير إلى أننا نستقي معلوماتنا عن تلك المرحلة لـيس فقـط مـن المكتشفات الأثرية ولكن من النصوص الكتابية، وأهمها الحوليات الآشورية، والكتابات الآرامية، والتوراة مع التذكير بأن المعلومات التوراتية تبقى موضع شك ما لم تتقاطع صحتها مع وثائق أخرى، إذ إن التوراة قد كتبت في أزمنة متأخرة ومتقطعـة، ومـن وجهة نظر متعصبة، قومياً ودينياً.

فيما يخص دمشق فإننا ما زلنا نعاني من الصعوبة نفسها، وهو غياب التنقيـب الأثري فيها، مما يجعل معلوماتنا عنها مستمدة من المصادر الأخرى غير المباشـرة التي أشرنا إليها أعلاه. كما أن الواقع الطبوغرافي لمدينة دمشق القديمة، حيث توجـد مجموعة من التلال التي تمثل بقايا المدينة الآرامية، ولاسـيما تـل السـماكة وتـل النجارين، تحت القناطر، تل القيمرية، وسفل التلة، فضلاً عن بعض المكتشفات مـن دمشق نفسها، ولاسيما تمثال أبو الهول الذي عثر عليه في منطقة الجامع الأموي، كل ذلك يمدنا بالكثير من المعلومات عن هذه المرحلة، مع العلم أن هذه المعلومات كانـت

قد تكون أكثر غزارة وأهمية فيما لو كان التنقيب في دمشق القديمة ممكناً، كما هـو الحال في العديد من المدن الآرامية الأخرى (30).

ويعتقد أن مملكة آرام صوبا في منطقة البقاع كانت أول وأقوى الممالك الآرامية، إذ مع نهاية القرن الحادي عشر بدأنا نسمع عن آرام دمشق التي وقفت إلى جانب آرام صوبا في حربها ضد الملك داوود حسب الرواية التوراتية التـي تـذكر أن دمشـق، وبالتحالف مع ممالك آرامية أخرى، أرسلت قوات تحارب إلى جانب آرام صوبا التي قادت في عهد ملكها هدد عزر، وبالتحالف مع العمونيين والأدوميين وآرامي بلاد مـا بين النهرين، حروباً ملحمية ضد مملكة داوود، كما تشير المصادر التوراتيـة، فقـط، مما يجعل هذه الأخبار محط الحذر وتثير الشكوك في صحتها التاريخية، ومهما يكـن من قوة دمشق الحقيقية، مقارنة مع صوبا، لكن من الواضح أنها بـدأت تـؤدي دوراً مهماً في تاريخ المنطقة وأحداثها. إلى جانب ممالك أخرى، ولاسيما حماة في الشمال، وعمون ومؤاب في الجنوب (31). ثم تخبرنا النصـوص أن شخصـاً يـدعى رزون Rezon ، رصين الأول الذي استطاع أن ينهض بسرعة بعد أن كان يخدم في بـلاط مملكة صوبا، ودخل دمشق زهاء منتصف القرن العاشر ق.م، وأقام فيها مملكة قويـة وضعت حداً لسلطة مملكة سليمان، منتزعة جميع الممالك الآرامية ليبدأ فصل جديـد في تاريخ الشرق القديم (32). بعد موت رزون خلفه في المرحلة الواقعة بين نهايـة القرن العاشر ومنتصف القرن التاسع ق.م، ثلاثة ملوك حافظوا علـى قـوة دمشـق ووسعوا نفوذها، وهم على التوالي: حازيان، طاب رامان وبر حدد الأول (ابن هـدد)، الذي أخضع مملكتي يهودا وإسرائيل إلى سلطته الكاملة، وربما امتد نفوذه شمالاً حتى حلب حيث عثر على نصب نذره هذا الملك للرب "ملفارت" (33).

في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. بلغت مملكة دمشق أوج قوتها، ومـن أهم ملوكها في هذا العصر حدد عدر حسب المصادر الآشورية (بر حدد الثاني) الذي فرض سيطرة شاملة على كامل بلاد الشام، ونقـل مملكـة دمشـق إلـى مسـتوى

إمبراطورية قوية، ثم جمع تحالفاً قوياً من جميع الممالك الآرامية، وتصدى لأطماع الإمبراطورية الآشورية في بلاد الشام، كما تدلنا على ذلك الوثائق التي أرخت للمعركة الكبرى التي حصلت عام 853 ق.م، في موقع قرقر في منطقة الغاب جنوب جسر الشغور (تل قرقور) في سورية بين الملك الآشوري شلمنصار الثالث وبين تحالف الممالك الآرامية بزعامة حدد عدر ملك دمشق، وإلى جانبه مملكة حماة في عهد ملكها أورخلينا. تتحدث المصادر الآشورية عن القوة الآرامية الكبرى التي شاركت في هذه المعركة بأكثر من /60/ ألف مقاتل مدججين بالسلاح وعلى رأسهم /20000/ مقاتل و /1200/ عربة حربية من مملكة دمشق، و/10000/مقاتل و/700/ عربة حربية من مملكة حماة، وذلك حسب ما ورد في المسلة السوداء التي عثر عليها في كلخو عاصمة الآشوريين (34)، والتي ذكر فيها أيضاً "جندوبو" ملك العرب ضمن التحالف الذي حارب الآشوريين، وهذا أول وأقدم ذكر للعرب باسمهم الصريح.

وعلى الرغم من ذكر الآشوريين إلى أنهم حققوا نصراً حاسماً ضد الآراميين في هذه المعركة إلا أن الوقائع لا تشير إلى صحة هذا الادعاء بدليل عودة الحملات الآشورية على سورية بعد وقت قصير من معركة قرقر، وخلال عدة سنوات متتالية حتى عام 845 ق.م، دون أن يتمكنوا من إخضاع آرام دمشق أو احتلالها.

خلف حدد عدر حزائيل، ويعني اسمه ايل-يرى، الذي يبدو أنه كان مغتصباً من خارج البلاط الملكي، لكن لم يستطع فقط الحفاظ على قوة دمشق بل زاد عليها منعة ونفوذاً، وأصبح أعظم قادة العالم الآرامي بعد أن فرض سيطرته على كامل الممالك الآرامية في بلاد الشام وبلاد الرافدين. ومع أن السنوات اللاحقة شهدت تفكك تحالف الممالك الآرامية في وجه الآشوريين إلا أن مملكة دمشق خاضت وحيدة حروباً عديدة ضد الآشوريين، وتمكنت من صد جميع محاولاتهم التوسعية. كما أنها حافظت على سيطرتها على مملكتي إسرائيل ويهودا، وأخمدت جميع محاولات التمرد لهما، لتبقى

الإمبراطورية الأقوى، وحتى عهد بر حدد الثالث ابن حزائيل في الربـع الأول مـن القرن الثامن، ثم خلفه حاديان في الربع الثاني من القرن الثامن ق.م.

استطاعت دمشق الاحتفاظ بسلطتها على جميع ممالك المنطقة، كما اسـتطاعت أيضاً دفع الأطماع التوسعية للآشوريين، الذين توقفوا عن محاولاتهم السـيطرة علـى بلاد آرام حتى مطلع القرن الثامن ق.م عندما بدأت آشور باستئناف اعتداءاتها علـى دمشق، كما تدل على ذلك حوليات الملك الآشوري حدد نيراري، والذي يذكر أنه قـاد هجوماً كبيراً دمر دمشق (35). ثم بدأت آشور باستعادة قوتها التي بلغت أوجها مـع وصول تيغلات بيلاصـر الثالـث للحكـم (745-727 ق.م) حيـث أعـاد تنظـيم الإمبراطورية، وبنى جيشاً قوياً، مارس أقسى أنواع الحروب والتهجير ضد كل مـن وقف في وجهه. فقد قاد الآشوريون حملات ضد مملكتي يهـودا وإسـرائيل اللتـين استسلمتا بسرعة لتبقى دمشق العقبة الكبرى على طريق المنطقة بكاملها، وهذا ما دفع تيغلات بيلا صر إلى تجهيز حملة كبرى بدأت باحتلال الممالك الآرامية الشمالية، مثل ارفاد (بيت أجوشي) وشمأل (زنجرلي) ثم توجه إلى بـلاد الشـام فاحتـل الممالـك الساحلية، وأهمها جبيل وسميرا وعرقا وصور، ثم أكمل احتلال غزة التي فر ملكهـا إلى مصر قبل أن يتوجه نحو دمشق التي - وعلى الرغم من بقائها وحيدة- خاضـت معارك طاحنة ودامية مدة سنتين (734-732 ق.م) وتكبدت فيها خسائر فادحـة فـي الرجال والأموال، بما فيها تدمير الغوطة وقلع أشجارها، قبل أن يدخلها الآشـوريون ويقتل آخر ملوكها المدعو رصين الثاني عام 732 ق.م، تلا ذلـك سـقوط السـامرة وحماة وعسقلان(36). وهكذا انتهى دور مملكة آرام وغـاب نجـم الآراميـين بعـد محاولتهم التحررية الفاشلة والأخيرة في عـام 720 ق.م، ضـد سـارغون الثـاني الآشوري بعد أن تم تقسيم الممالك الآرامية واتباعها إلى ولايات السـلطة المركزيـة الآشورية في نينوى. ومرت سنوات طويلة قبل أن تستعيد دمشق وغوطتها دورها من جديد في العصور اللاحقة.

المراجع والملاحظات

1- عادل عبد السلام، الأقاليم الجغرافية السورية، جامعة دمشق 1989/1990.

2- عمل الهولندي فـان ليره في الخمسينيات خبير تربة لدى الحكومـة السـورية، وهو مهتم أيضاً بالدراسات الأثرية والتاريخية، ولاسيما دراسات الزمن الرابـع. وقد استفاد من تنقله في مختلف المناطق السورية، وجمع ملاحظات نشرها فـي كتاب صغير، فتح الأعين على أهمية الدراسات الجيومورفولوجيـة، وعلاقتهـا بعصور ما قبل التاريخ. وقد نشرت الكتاب المديرية العامة للآثار والمتاحف عام 1960و1961 بعنوان:

W. Y. Van Liere, Observations on the Quaternary of Syria .

3- عادل عبد السلام، المرجع السابق رقم (1).

4- المعلومات الأولى عن العصور الحجرية في حوضة دمشق لم تـأتِ علـى يـد اختصاصيين، وإنما هواة وجدوا ظرفياً في هذه المنطقة. انظر: Potut L. 1937, La Péhistoire de la Région de Damas, B. S. P. F. 34. p: 130-132.

5- فـان ليره، المرجع رقم (2) نفسه.

6- من بين المهتمين الأوائل بعصور ما قبل التاريخ في منطقة وادي بردى الفرنسي بريـفـه الذي نشر بحثاً عن هذا الموضوع في مجلة جمعية ما قبـل التـاريخ الفرنسـية. Prevés M. 1945, Notes Sommaires de la Préhistoire Syro-Libanaise, B.S. P. F. 42, p: 201-209.

7- تعد أعمال المختصين، فرنسيس أور ولورين كوبلاند وأوليفيه أورانش من أهـم المؤلفات العلمية الجادة التي عالجت عصور ما قبل التاريخ في المشرق القـديم بعامة، وفي سورية ولبنان بخاصة. انظر :

Hours F. Copeland L. Aurenche O. 1973, Les Industries Paléolithiques du Proche-Orient. Essai de corrélation. L'Anthropologie, 77, p: 229-280.

8- أحد أهم المواقع التي سبقت نشوء المستوطنات الزراعية، في حوضة دمشق، هو سهل الصحراء شمال غرب دمشق الذي نشر عنه كل من ڤـان ليـره وهنـري دوكنتسون في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية:

Liere W. J. Van & de Contenson H. 1963, A Note on Five Early Neolithic Sites in Inland Syria, *AAAS* 13, p: 175-209.

9- Cauvin M. C. Coqueniot E, Le Miere M, Muhesen S et M. C. Nielé 1982, Prospection Préhistorique à Mallahat-Jayroud (Qalamoun, Syrie), *AAAS*. 32, p: 273-281.

10- Contenson H. de 1966, La Station Préhistorique de Qornet Rharra près de Saidnaya, *AAAS*. (16)2, p: 179-200.

11- نشرت النتائج الأولية للتنقيب في موقع الباز، جبعدين، من قبل السيد نيكولاس كونارد الذي بدأ التنقيب والمسح في المنطقة منذ 1999. راجع:

Conard. N. J. 2002, An Overview of the Recent Excavations at Baaz Rockshelter, Damascus. Province – Syria, Festschrift für Manfred Korfmann, Band 2, Tübingen.

12- سلطان محيسن، بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ، المزارعون الأوائـل، دار الأبجدية 1995.

13- Stordeur D. 2003, Des Crânes Surmodelés à Tell Aswad de Damascène, PPNB-Syrie, *Paléorient* 29/2, p: 109-115.

14- Contenson H . de et *all* 1995, Aswad et Ghoraife, Sites Néolithiques en Damascène (Syrie) aux IXème et VIIIème Millénaires av. J.-Ch. Beyrouth..

15- قام هنري دوكنتسون بزهاء عشرة مواسم تنقيب في موقع تل الرماد نشرت في:

Contenson H. de et *all* 2000, Ramad, Site Néolithique en Damascène (Syrie) aux VIIIème et VIIème Millénaire av. J.-Ch. Beyrouth.

16- أجرى دوكنتسون أسباراً محدودة في تل الخزامي ونشرها في:

Contenson H. de 1968, Rapport Préliminaire sur les Fouilles à Tell el Khazami en 1967, *AAAS.* 18, p: 55-62.

17- تجري في موقع البحارية، قرب النشابية شرق دمشق، تنقيبات أثرية لتـدريب طلاب المعهد المتوسط للآثار، بإدارة محمود حمود وغادة سليمان، وهناك تقارير أولية عن نتائج هذه التنقيبات ومكتشفاتها المهمة بانتظار النشر العلمـي الكامـل لها.

18- عالج هذا الموضوع السيد جاك كوفان في كتابه الشـهير الـذي تـرجم إلـى العربية: الألوهية والزراعة، ثورة الرموز في العصر النيوليتي. ترجمة موسـى ديب الخوري، مراجعة وتقديم سلطان محيسن، دمشق 1999.

19- المرجع نفسه رقم (18).

20- عالج هذا الموضوع أيضاً السيد جاك كوفان في كتابه المترجم إلى العربيـة: جاك كوفان، القرى الأولى في بلاد الشام، من الألف التاسع حتى الألف السـابع ق.م.، ترجمة إلياس مرقص، دمشق 1995.

21- سلطان محيسن، المرجع رقم (12).

22- بخصوص ورود اسم منطقة آبوم للدلالة على منطقة دمشق صدرت دراسـات عديدة ومتباينة من أبكرها:

Dossin G. 1939, Les Archives Economiques du Palais de Mari, *Syria* 20, p: 97-113.

Albright W. F. 1941, The Land of Damascus Between 1850-1750 B. C. *BASOR* 83, p: 30-36.

23- كثيرة هي المراجع والباحثون الذين يتحدثون عن ورود اسم دمشق في الوثائق المصرية، ويمكن مراجعة:

Posener G. 1971, Syria and Palestine, 2160-1780, Relations with Egypte. The Cambridge Ancient History 1/2. Cambridge University.

وهناك أيضاً :

Aharoni 1979, The Land of Bible, A Historical Geography, Philadelphia: West minister.

24- راجع الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، تاريخياً ولغة وفناً، دمشق 1988.

25- المرجع نفسه (24).

26- يعد كتاب واين بيتارد من أكثر المراجع التي تخصصت في تـاريخ دمشـق القديم الذي سبق العصور الكلاسيكية، وإن كان يؤخذ عليه الاعتماد الزائد علـى المراجع التوراتية.

Pitard W. I. 1987, Ancient Damascus, A Historical Study of the Syrian City State from Earliest Times Until its Fall to the Assyrians in 732 B.C. E. Eisembrauns Winona Lake, Indiana.

27- راجع =

Goetze A. 1975, The Hittites and Syria (1300-1200 B.C.), p: 252-73, The Cambridge Ancient History. Cambridge Univeristy.

28- المرجع رقم (26).

29- راجع أ. دوبون- سومير الآراميون، دمشق 1988.

30- دراسات دورتيه ساك D. Sack من أهم البحوث التي جرت في دمشق، حيـث قامت المذكورة بالتنقيب والمسح والتوثيق في المدينة القديمة، ولاسـيما للأوابـد العائدة للعصور العربية والإسلامية. ويعد كتابها الأخير من أهم ما صـدر عـن مدينة دمشق القديمة، مع أنه يعالج باختصار المراحل الأولى حتى الألـف الأول ق.م. وهو يركز على العصور الكلاسيكية وما بعدها. انظر :

دورتيه ساك، دمشق، تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية، منشـورات المعهـد الفرنسي للشرق الأدنى. دمشق 2005.

31- المرجع رقم (24).

32- انظر المرجع رقم (26).

33- انظر :

Cross F. M. 1972, The Stele Dedicated to Melcarth by Ben –Hadad of Damascus. *BASOR* 205, p: 36-42.

34- انظر:

Brinkman J. A. 1978, A Further Note to the Date of the Battle of Qarqar and Neo-Assyrian Chronology, *JCS* 30, p: 173-175.

35- انظر:

Millard A. R. & Tadmor H. 1973, Adad-nirani III in Syria, Another stele fragment and the date of his campaigns, *Iraq* 35, p: 57-64

36- انظر:

Sader H. 1984, Les Etats Araméens de Syrie depuis leur Fondation jusqu'à leur transformation en Provinces Assyriennes, Ph. D. Dessertation, American University Beirut.

.